سؤال الآخر في المشروع النهضوي

مريم آيت أحمد *

(1)

مقدمة:

في بيئة مشحونة بالأفكار والمعلومات وتحولات تفوّق عامل الزمن على عامل المكان، وتقدم العلم على الجغرافيا؛ يتأكد الحديث عن العلاقات المفترضة بين الحضارات في هذا العالم، التي لا زالت تحتفظ لنفسها بمقومات البقاء والاستعداد للنمو والنهوض.

وتبدو قيمة هذا الموضوع بعدما دأب مفكرو الغرب والإسلام على حد سواء على استعادة طرح سؤال كبير مركب من أسئلة تفصيلية عقب كل تحول استراتيجي يبدو فيه العالم متجهاً نحو مرحلة جديدة، يتعلق بماهية طبيعة الصراع بين الأمم والشعوب؟ ومابين الرفض المطلق أو القبول المطلق تعددت المناهج وتباينت الرؤى واختلفت المشاريع والمدارس.ومع العديد من الإخفاقات التي شهدها العالم الإسلامي أمام الخلل العالمي الناتج عن أحادية القطب وازدواجية المعايير في تطبيق المواثيق الدولية,وطرح مخططات في اختراق جدار الأمن الثقافي والهوية الإسلامية.

في هذا المناخ القلق، ولشدة الغموض المحيط باحتمالات تطور العلاقات الدولية المقبلة وبصيرورة العالم المضطرب؛ خرج الإسلام من دائرة ما أريد له من عزلة وانقطاع شاهراً مشروعه النهضوي في كل اتجاه وبلغات ممانعة متعددة، وأعلن بعزم رواده مشاريع حضارية بدت وكأنها تنطق بخطاب خُيّل إلى مصنعي عقلية الصدام والمؤامرة أنه قد دفن تحت ركام الخصوصيات والفوارق التي اجتاحتها حمى الدعوات العولمية.

وفي هذا الإطار جاء اختيار هذا المحور من محاور المشروع النهضوي كمحاولة للإجابة على سؤال العلاقة التاريخية بين الداخل والخارج باعتبارها ليست وليدة أحداث تاريخية ماضية، أو اللحظة السياسية الراهنة؛ وإنما تفاوتت في مستواها ليتشابك الماضي مع الحاضر الذي أضيفت له عناصر جديدة بحكم التغيرات العالمية.

وارتأينا أن الإجابة على جدلية هذه العلاقة لاتنفك عن عملية نقد آليات تناولها السائدة في ثقافتنا الإسلامية؛ إذ يصل الخلط الفكري أحيانا لتحديد معان مختلفة ومتباينة اتجاه المقصود بالعلاقة مع الآخر، وهذا يتطلب تحديد مضمون المفهوم وتأصيله إسلاميا، عبر طرح مجموعة من الخيارات المعروضة اتجاه هذه العلاقة ماذا بعد الاعتراف الإسلامي بالآخر، وسرد نصوص قرآنية وشواهد تاريخية لأوجه هذه العلاقة؟ ماذا بعد تأصيل المسلمين في السير لمفاهيم للعلاقات الدولية في الإسلام؟ ماذا بعد الغزو الصليبي

والاستعماري الاستيطاني والفكري؟ ماذا بعد العولمة وصراع الحضارات؟ مع مَنْ نُؤَصّل لفتح هذه العلاقات خارج العالم الإسلامي؟ ومن المؤهل لرعاية وترشيد وتوجيه هذا الحوار وتلك العلاقات؟ أي علاقة نقصد: هل العلاقات الدولية بمفاهيمها وموازناتها أم علاقات فلكلورية ترفيهية نزين بها مسرح الساحة العالمية؟ هذه بعض الأسئلة وأسئلة أخرى سيأتي ذكرها مع مسارات محاور هذا البحث.

الذات مدخل لمعرفة الآخر:

كثيرون هم الذين يطرحون مسألة العلاقة مع الآخر على طاولة البحث العلمي ناسين أو متناسين البحث عن العلاقة مع الذات أولا، والتي تكون بمثابة المقدمة والمدخل للعلاقة مع الآخر، وسوف نشير بإيجاز إلى أهمية الوعي بأبرز مداخل الذات لمعرفة الآخر، ومنها:

الوعي بخطورة الشعور الانهزامي:

من عوامل تخلّف المسلمين وتأخرهم الحضاري ما يستشعره الفرد المسلم في نفسه من إحساس بالدّونية والضآلة بحكم المغلوبية الحضارية التي هو فيها، فذلك الشعور من شأنه إرخاء إرادته وتثبيط عزمه، ودفعه إلى الاستكانة والقعود، فمن حملات المستشرقين وإفراغها لمضامين الثرات الحضاري الإسلامي، إلى الحملات الإعلامية الراهنة التي تظهر أنّ كلّ نقص وشرّ إنما هو من قبل المسلمين، وأنّ كلّ خير وكمال إنما هو من قبل الغرب وحضارته، فهل حقا ستستفيد الأمة من حوار الآخر خارجيا إذا كانت هذه العقلية هي السائدة بين أبنائها داخليا؟.

إن تفادي هذه الحالة من الانهزامية واستنقاص الذات لا يكون إلا بمعالجة النّفوس ببثّ روح العزّة، بأن يبصّر المسلم بأنّ إيمانه بالإسلام، وانتماءه إلى أمته هو مبعث عزّة واستعلاء والشعور بالكرامة والعزة وقيمة الذات، والتخلّص من مركّب النّقص والانهزامية، ولعل هذه المعاني هي الكفيلة بصنع مركزية ذات الأمة في مواجهة التحديات, وبتحويل الشعور بالهوان والدونية إلى شعور العزة والعطاء والشموخ(1).

الوعي السياسي:

حين لا يتحقق مفهوم الوحدة والمواطنة بين مكونات الأمة تصبح العلاقة بين الأفراد مختلة، وكذلك تختل العلاقة بين الحقوق والواجبات، ومن هنا تشعر فئة ما بالغبن والاضطهاد والتمييز، وهو ما يقود إلى الانفجار الداخلي عاجلا أو آجلا، ومن ثم تصبح هناك حاجة ماسة إلى إيجاد إصلاح سياسي داخلي عند التفكير في أي تواصل على المستوى الخارجي

الوعي الثقافي:

وتتمثل أهم عناصره في انعدام ثقافة التسامح، وهو ما يمثل عائقا في انفتاح كل إنسان على الآخر، فوجود الانغلاق يخلق مبررا للإساءة إلى الآخر والاعتداء عليه وعلى

حقوقه، وأكد الصفار أن هناك "ثقافة تعبوية تحريضية" خاصة في أوساط متعصبة، وهذه الثقافة التعبوية التحريضية هي جزء من مشكلة الأمة الحالية؛ فالحرب أولها كلام، وإصلاح الخلل الثقافي الذي يشعل النيران الداخلية في الأمة مدخل رئيس لإصلاح الخلل الثقافي على مستوى الآخر في الخارج.

الوعي الحضاري:

وذلك بأن يبصّر المسلم بأنّ الأمّة التي ينتمي إليها هي أمّة أسهمت في البناء الحضاري للإنسانية بقسط وافر، من شأنه أن يكون سبباً للاعتزاز والفخر، وهي أمّة تحمل من القدرة في كلّ زمن ما تستطيع به أن تسهم في التحضّر الإنساني باستمرار، وإن تعطّل عطاؤها في بعض الأزمان؛ فإنما ذلك لظروف عارضة، ما إن تنقضي حتى تعود بفاعلية أبنائها ودورهم الإنجازي إلى العطاء في الأمة؛ وذلك لأنّها تتوفّر في بنائها الدّيني والثقافي على مقوّمات أساسية للبناء الحضاري، وهي مقومّات ثابتة إذا ما استنهضت فإنها تثمر عملية الإنجاز الحضاري في كل حين(2).2

الوعي الخلافي:

إنّ من دواعي قعود الفرد المسلم -وقصوره عن العمل التعميري في الداخل الإسلامي قبل الخارج- عدم وعيه بمهمّته في الحياة وغايته من الوجود، فغياب ذلك الوعي يجعله مكتفيا بما يكفيه من قدرة على الاستهلاك لحفظ الوجود, لا- لخلافة الأرض وإعمارها؛ بينما تحتاج خلافة وعمارة الأرض إلى فاعلية الأمَّة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بفاعلية أفرادها، فالأمة بقيمها ومبادئها وأهدافها واقع يجب أن يتلاحم مع قدرات الفرد لتقديم فاعلية الدور الإرادي الانجازي الحضاري لأمتنا على قاعدة "كل منكم على ثغر من ثغور الإسلام، فليحم كل منكم ثغره" من منطلق الجاهزية المعرفية والعقلية والنفسية والوحدة الاقتصادية والسياسية والإعلامية والتربوية(3).

من هنا نستنتج أن العلاقة مع الآخر لا- يمكن أن تتم إلا بفاعلية داخل الذات الايجابية المتحلية بعزة دينها وهويتها وبقدراتها وإمكاناتها ومهاراتها لإدارة مائدة الحوار مع الآخر من موقع المبادرة للدعوة، كما أرادها القرآن الكريم في قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)، وختمها باحتمالية رفض الآخر لموائد الحوار على أسس استكبارية استعلائية مؤكدا على دور الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، وعلى هذه الأسس ينبغي تأصيل العلاقة مع الآخر، لا- من جانب الانعزال والانغلاق على الذات والغياب عن المشاركة الفعالة في صنع وإنجاز ما يتعلق بمصيرنا في دوائر صنع القرار العالمي، اللهم فيما يكون ردا على نظريات الآخر أو استهلاكا وتسويقا لمنتوجه، أو اعتذارا لاتهاماته أو قبولا لمبادراته ودعواته التي غالبا ما ترسم خططها وتحدد محاورها وأهدافها مؤسسات ومنظمات وحكومات الآخر.

تأصيل مفهوم الآخر من منظور المشروع الحضاري الإسلامي:

لم تكن عالمية الثقافة الإسلامية -التي واكبت النهوض الحضاري الذي بلغ أوجه في القرن الخامس الهجري- ناجمة عن عملية تلفيق بين قيم الشعوب التي شكلت المجتمع الإسلامي الذي استوعب القارات الثلاث المعروفة آنذاك، كما أنها لم تنجم عن توفيق بين التصورات الإسلامية والنصرانية واليهودية؛ بل حافظت -عبر تاريخها- على شخصيتها المتميزة المستقاة من الرؤية الإسلامية في تحديد العلاقة مع الآخر، وهي نابعة من الخطاب القرآني الذي أكد على تساوي الناس في وحدة العنصر الإنساني في قوله تعالى: (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة)(4).

وأكد على مبدأ تساوي الناس في الكرامة، والتفاضل بالعمل في قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (5)، وعالمية الرؤية الإسلامية نابعة من تأكيد الإسلام على حق الإنسان في اختيار الشريعة والعقيدة التي يؤمن بها: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات)(6)، وهي نابعة أيضا من الدعوة لضرورة البدء بالمبادرة في فتح العلاقة مع الآخر، ودعوته لمائدة الحوار، والبحث عن قواسم مشتركة بين التوجهات العقدية والدينية المختلفة في قوله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)(7).

وقد قامت العلاقات الدولية على مبدأ التواصل الإنساني مع الآخرين الذي يسعى لتحقيق كرامة الإنسان وحقوقه انطلاقا من قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم)(8)، وعلى مبدأ العدل في قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)(9)، (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)(10)، وعلى مبدأ السنن الكونية في التدافع: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)(11)، وعلى مبدأ السلم: (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)(12)، (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا)(13).

وعلى مبدأ التعايش الديني: (وطعام أهل الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنين والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم)(14).

ولقد جاءت الشواهد والممارسات العملية للعهود الإسلامية المختلفة لتؤكد مثلما أكدته النصوص الشرعية مبدأ التواصل مع الآخرين بدءا بدستور (الصحيفة) الذي وضعه النبي في مجتمع تعددي مكوّن من مسلمين ونصارى ويهود ووثنيين، وكان بمثابة عقد اجتماعي

ينظم العلاقات ما بين القبائل على أساس وحدة سكان المدينة، والمساواة بينهم في الحقوق والكرامة الإنسانية، ومرورا بصلح الحديبية الذي شكل عهداً من لدن النبي إزاء نصارى نجران، واستند إلى مبادئ التسامح وكفل الاعتراف بالآخر، ووقوفا عند العهدة العمرية التي أجراها الخليفة عمر بن الخطّاب مع البطريرك الأورشليمي صفرونيوس وهي تشكل خير دليل على التسامح إزاء الأديان الأخرى(15).

كما تجسد قصة إسلام أهل سمرقند بتطبيق مبدأ العدالة نموذجا راقيا في قيمة المبادئ الإسلامية في التعامل الأخرى، والأمثلة والشواهد التاريخية حافلة بنضج ورقي هذه العلاقات(16).

ولعل هذه الآيات والشواهد التاريخية تدل بعمومها على أن أصل العلاقة مع الآخر - شعوبا ودولا- وقبائل- هو السلم. والتعاون العملي والتواصل الفعلي المشترك والتعايش السلمي على قاعدة قيم ومبادئ العدل والمساواة، وثمة علاقة وثيقة بين الإقرار بالعدالة وإقرار السلام، فإذا اختلت العدالة اختلت مشروعية السلام، فنظام الإسلام في بلورته لقانون دولي إسلامي لم يفصله عن الشرع؛ بل جعله امتدادا له وحدد أن الغاية منه تنظيم علاقات المسلمين مع غيرهم سواء أكان ذلك ضمن البلاد الإسلامية أو خارجها (17).

وعلى هذا الأساس نخلص إلى أن التعارف المبني على التواصل والتعاون الذي تنشده الرؤية الإسلامية في العلاقات الخارجية مع الآخر يجب أن يكون منضبطا بمقتضيات قيم العدالة والمساواة في الأخوة الإنسانية، والحرية، والوفاء بالعهود والالتزامات, وأن أي خلل بهذه القيم فيه حكم ببطلان هذه العلاقة وفقدانها الشرعية الإلهية والمصداقية الإنسانية؛ لأن القيم في النظرية الإسلامية لا تتجزأ ولا ينفي بعضها بعضا (18).

إن هذا النمط من التعاون والتعارف مع الآخر، سواء داخل أو خارج الإطار الجغرافي الإسلامي، ووفقا لمعاييره التي تمتزج فيها القيم والأخلاقيات المجردة من المنافع والمصالح المادية المتوحشة ، هو الذي يؤسس ، ضمن النظرية الإسلامية العامة لأصول العلاقات مع الآخر (العلاقات الدولية)، بناء السلام العالمي الحقيقي بين مختلف الشعوب والثقافات والأديان والحضارات، ويحد من إمكانيات حدوث النزاعات أو نشوب الحروب والتطاحنات فيما بينها.

سؤال الآخر في ظل تناقضات الواقع:

لقد أضحت أُمَّاتُ القضايا التي عالجها الفكر العربي والإسلامي منذ مطلع هذا القرن حول مسائل مرتبطة بموضوع الأنا والآخر مع طرح الخيارات المعروضة اتجاه هذه العلاقة (حوار/ صدام – تعايش/ إقصاء- قبول مطلق/رفض مطلق- توفيقية/انتقائية...)

وتعددت الكتب والدراسات والبحوث والمقاربات والمؤتمرات التي تعكس عناوين هذه الإشكالية المطروحة, وتعددت الإجابات حسب تنوع وتعدد المرجعيات وتلون المدارس الفكرية في دائرة الفكر العربي والإسلامي.

إن معالجة إشكالية تأصيل العلاقة مع الآخر من منظور إسلامي تقتضي نقد آليات تناولها السائدة في ثقافتنا الفكرية والسياسية (العلاقات الدولية)؛ إذ يصل الخلط المعرفي أحيانا إلى تحد مواقف واتجاهات متباينة ومتشابكة تجاه المقصود بالعلاقة مع الآخر.

فمن هو الآخر خارج دائرة العالم الإسلامي؟

هناك على الصعيد العالمي أكثر من آخر؛ إذ يراه البعض الغرب ومشرعه الاستيطاني العسكري والفكري، ويراه البعض الولايات المتحدة الأمريكية ومشروعها العولمي, ويراه الآخرون الشرق والغرب وسائر حضارات العالم، ولدى آخرين الأمم المتحدة والمؤسسات الفكرية والمنظمات المدنية والحقوقية العالمية غير الحكومية...وقد يراه البعض أنه كتلة الجاليات المسلمة في كافة دول العالم, فبأي آخر نهتم ونؤسس لعلاقات التفاعل والتواصل الإنساني والحضاري؟.

لعل الجواب يكمن في تاريخ العلاقة التاريخية القائمة بين الذات/ الشرق والآخر/الغرب وما تحمله من حواجز نفسية وعوائق ذاتية تشكلت عبر تراكم جيولوجي تاريخي، وأفرزت مشكلات كان ولا زال يعاني منها واقع العالم الإسلامي.

وإذا كان الهدف من البحث تجاوز هذه الحواجز لقراءة واستشراف مستقبل هذه العلاقة في ظل المتغيرات العالمية؛ فإن الموضوعية العلمية تقتضي الوقوف عند وعي الذات والآخر لنمط العلاقة الحاكمة بينهما، باعتبارها الأساس في إفراز آليات التعامل، وتشكيل بنية التواصل الحقيقي لضمان استمرارية ونماء وإثراء فاعلية تلك العلاقة.

إن علاقة المسلم بالآخر تنطوي على قدر كبير من التو تر والتعقيد ليس فقط لأنها علاقة تاريخية تمتد من الأغوار إلى قرون وقرون، وترتدي عبر كل مرحلة تاريخية معينة في صورة متميزةٍ رداء جديدا؛ ولكن أيضا لأنها تستند إلى محركات دينية ونفسية وثقافية وتربوية أضيفت إليها اعتبارات سياسية واجتماعية واقتصادية بين قطبي حضارتين، وقد أفرز هذا التعقيد والتو ثر ردود أفعال متباينة وذات مستويات وأبعاد مختلفة لدى الطرفين ذاتيا وغيريا(19).

عقبات الحوار مع الآخر على المستوى الداخلي للعالم الإسلامي:

إن الدولة الإسلامية كانت دولة مؤسساتية منذ نشأتها، فلو رجعنا إلى الوثائق النبوية التي عقدها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوجدناها 287 وثيقة، وهي تمثل ـ كموسوعة ضخمة- أسس العلاقات الخارجية في الإسلام، والتي قامت على مجموعة ضوابط نذكر منها:

1 ـ تقوم العلاقات الخارجية وفق تقدير مصلحة الدولة الإسلامية.

2- تقوم العلاقة الخارجية على تقدير أخف الضررين.

3 ـ تلتزم العلاقة الخارجية بالعدل والوفاء بالتعهدات على أساس الفصل بين المقاتلين

وغير المقاتلين.

4 - الأصل في استراتيجية العلاقة الخارجية التعارف المؤدي للتعاون الإنساني على جلب المصلحة ودرء المفسدة، وتوظيف كل الوسائل التقنية المعاصرة لتفعيل وتطبيق هذه الاستراتيجية(20).

هذه الضوابط كانت كفيلة باستقرار العلاقة مع الآخر في ظل الرؤية الإسلامية؛ لكن المجتمعات الإسلامية - وبعد ما مر بها ومازال من نكبات متتالية وصدمات متلاحقة- ظلت مواقفها مترددة في موضوع الآخر, وتباينت الرؤى، وتنوعت معنى ودلالة هذا الآخر بين مختلف تيارات الوعي العربي والإسلامي.

فالآخر في خطاب دعاة الأصالة هو الغرب الذي يقابل الشرق, وهو والاستعمار الذي أباح ولازال يستبيح ديار العرب والمسلمين(21).

وفي المقابل يعرفه دعاة الحداثة والمعاصرة بأنه المدنية المتحضرة، وهو فكر الأنوار، وهو فكر العقل والعلم والقوة والتنظيم والتكنولوجيا، وهو الحرية والديمقراطية، وهوالمتحرر من القيم والمواريث التقليدية، وهو التنمية الشاملة، وهو الحداثة وما بعدها...

وما بين الرفض المطلق أو القبول المطلق يتحالف الخطابان في إهدار الرؤية الموضوعية لينصرفا معا إلى مضاربات لفظية,وإنتاج أحكام معيارية ذات أغراض أخرى خارج نطاق المعرفة والتحليل لمنطلقات وآفاق هذه العلاقة، كما يراد لها في استراتيجة المشروع الحضاري الإسلامي(22).

الذات في رؤية الآخر خارج العالم الإسلامي:

إن ظهور الإسلام في القرن السابع كقوة -حضارية وروحية وإمبراطورية - عازلة بين أوروبا وإفريقيا وتخوم آسيا، وما تلا ذلك من أحداث امتدت فصولها عبر قرون، بدأت بفتح الشام، وباقتطاع جنوب المتوسط عن الإمبراطورية الرومانية، والاستيلاء على الأندلس، وفتح القسطنطينية جعلت الإسلام يشار إليه في الغرب بأنه العدو الأكبر والذي يجب القضاء عليه بكل السبل العسكرية والثقافية، واستعمال أسلحة السب والتشهير، ووجدت تلك الألفاظ البذيئة والصفات المقيتة طريقها إلى ما يسمى "بالكتاب التنويريين" من أمثال دانتي وجان جاك روسو وفولتير وغيرهم، ليكرسوا صورة نمطية سيئة للإسلام والمسلمين.

وقد رافقت رواسب أحكام المتعصبين -ممن أخضعوا أقلامهم خدمة لأهداف استعمارية توسعية- مناهج المقررات الدراسية، وتعاقبت أجيال لتنهل منها أسس ومبادئ صناعة الصورة النمطية المشوهة عن ذاتنا الإسلامية، إن على مستوى التأليف والكتابة، أو على مستوى دوائر القرارات السياسية، أو على مستوى التسويق عبر وسائل الإعلام العالمي.

وبطبيعة الحال سينعكس هذا الإطار البنيوي على الحالة النفسية لتلك الشعوب فتختل

موازين التفاعل والتعارف والتواصل؛ لتتحول إلى حرب فكرية ثقافية دينية نعيشها بأحداثها السياسية وأحداثها العسكرية(24).

فهل ستظل الرؤية الإسلامية منحصرة في إطار هذه الحدود الضيقة المحكومة بمنطق الصراع والصدام؛ بحيث يسعى الطرف الأقوى في تغيير منظومة الطرف الأضعف, والطرف الأضعف يسعى لتبني الاعتذار أو الرفض ورد الفعل المضاد؟

في تصوري الإجابة عن هذا السؤال تمر حتما بالإجابة عن سؤال أو أسئلة أخرى تتعلق بتحديد أهداف رؤية المشروع الحضاري من هذه العلاقة؛ لأن الإسهام في وضع الاستجابة الصحيحة لحاجيات ومصالح الأمة والمسؤولية الفردية والجماعية لأبناء الحضارة الإسلامية للنهوض الحضاري جنبا إلى جنب مع الدوائر الحضارية الأخرى يتطلب - منا رسم خطط منهجية واضحة للمشاركة الحضارية العالمية، والتغلب على عقبات وتحديات التعارف والتواصل مع الآخر، وذلك بالاعتماد على منطلقين أساسين:

الأول: أن تتخذ مواجهتنا لهذه العقبات والتحديات أسلوب المواجهة الهادئة العاقلة البعيدة عن الردود والمواقف الانفعالية المؤقتة، بمعنى أن مخططات التقويم الواعي تستهدف بناء مناهج وخطط استراتيجية عملاقة، تبدأ ببناء عقل المسلم وفق المعرفة الدقيقة بالواقع وعدالة الدين والمروءة ومكارم الأخلاق، مع تهيئته (العقل) لتحقيق الإنجاز الأكبر عبر التداخل الثقافي الفعال مع العالم باختلاف أقطاره.

الثاني: على مكونات الذات الإسلامية أن تستوعب وجه المفارقة بين المنظومة الفكرية الإسلامية التي تجعل منهجية التعارف والحوار أصلا للعلاقة الإنسانية مع كافة الشعوب والأديان. وبين المنظومة الفكرية للآخر (الغرب) التي تفتقد النزوع الإنساني في العلاقات بين الشعوب وتقوم على العرق أو الجنس أو اللون أو الطبقة، وتأصل لمفهوم الصراع والصدام والاستعلاء على قاعدة صراع البقاء للأقوى والأصلح والأنفع.

وأمام منطق القوة والهيمنة والصراع يحتاج المشروع النهضوي أن يدرس علم الاستغراب، لا لمحاربتهم كما فعلوا هم مع الاستشراق، وإنما بتأسيس مناهج علمية دقيقة تمكن عقول أبناء أمتنا من إخضاع العقل الآخر تحت المجهر في مختبرات المؤسسات الاستراتيجية الإسلامية؛ لاستيعاب وتفكيك مقومات وآليات العقلية المحركة للصراع ضدنا، والتمييز الدقيق بين أطروحات الحوار التي تسعى للتواصل معنا حقا للدفاع عن المشترك الإنساني العالمي، وبين تلك الشعارات المخادعة التي ترفعها دوائر توهم الإعلام العالمي بمشروعية العلاقة والتواصل؛ لكنها توظف الحوار، وتستعمله كأداة من أدوات مستلزمات تفعيل الصراع والصدام، وشتان بين الخطابين.

إن عزم المشروع الحضاري على التنزيل العملي والتطبيقي لأسس ومرتكزات إيمانه بالحوارعبر تأهيل هذه العقول والكوادر بكفاءات ومهارات مؤسساتية، تتقن فن التواصل الثقافي والديني والسياسي والاقتصادي والإعلامي، وتدرس ظرفية إمكانية هذا التواصل

وحدوده ومؤهلاته وتنقية لائحة أطرافه، واستشراف آفاقه الآنية والمستقبلية, سيكون كفيلا بإخراج أمتنا من مأزق المرحلة الحرجة، وسيؤسس لبناء مرحلة جديدة قائمة بالتوازي مع جوهر ديننا ومستلزماتنا ومصالحنا الخارجية، لاسيما في ظل تواجدنا في إطار جغرافي استراتيجي يتمتع بمميزات دينية وثروات طبيعية وبشرية ونفطية تجعله على الدوام عرضة لتدخلات خارجية تتشكل بتشكل الظرفية التاريخية؛ لتطل علينا في القرن الواحد والعشرين بتحديات النظام العالمي والعولمة والحداثة وما بعدها، والثورة العلمية والتكنولوجية وثورة الاتصال والقرية الكونية الواحدة, تحديا، ويوجد مناخاً ثقيلاً يحاصر الحوار، ويسبب ردود أفعال حادة تنادي بالصراع والقطيعة.

ومن ثم نخلص - مقابل ماطرحناه من بدائل - لمواجهة عراقيل وتحديات الحوار مع الآخر ثقافة ودينا وحضارة عالميا إلى القول بان المنهج الإسلامي المبني على التدرج في الفهم، ونظام المراحل من التعريف، إلى التكوين، إلى التنفيذ؛ ليدل دلالة عظيمة على منهجية الإسلام المتفردة في التدبير للمستقبل، والعمل الجاد من أجل تحقيق المستقبل الأفضل للفرد والمجتمعات الإنسانية (أما المنهج الذي يبني صورة للمستقبل متفائلة وإيجابية إزاء طبيعة البشر؛ لكنها سلبية إزاء إمكانية التغيير عبر الزمن- فهو منهج ناقص لا يستوعب تكامل وشمولية المنهج الرباني الإسلامي)(25).

****

الحواشي:

*) باحثة وأكاديمية من المغرب.

1) عوامل الشهود الحضاري، ج2، عبد المجيد عمر النجار، ص76 ط/1، دار الغرب الإسلامي.

2) إعادة تشكيل العقل المسلم التربية وتفعيل الدور الحضاري للشباب الإسلامي، عماد الدين خليل، ص46.

3) مالك بن نبي شاهد على القرن، ص106.

4) سورة النساء آية 1.

5) سورة الإسراء آية 70.

6) سورة المائدة آية 48.

7) سورة آل عمران آية 64.

8) سورة الحجرات آية 13. سورة المائدة آية 8.

9) سورة الحج آية40.

10) سورة البقرة آية 200.

11) سورة النساء آية 9.

12) سورة المائدة آية 5.

13) الإصابة في تمييز الصحابة العسقلاني ج3 ص5.

14) المنذري مختصر سنن أبي داود، ج4 ص63.

15) الموسوعة في سماحة الإسلام محمد الصادق عرجون، ج1 ص342.

16) العلاقات الدولية في الإسلام سيف الدين عبد الفتاح ج2 مدخل القيم إطار مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام القاهرة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط/1999 ص27.

17) الإسلام ومستقبل الحضارة صبحي الصالح، بيروت، دار الشورى دمشق دار قتيبة، ط1190 ص228.

18) العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات، د إسماعيل صبري، ص130 الكويت ط/5 1987م.

19) النظام العلابي ماضيه، حاضره، مستقبله سمير أحمد الزين، ص105، مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

20) نظريات التنمية السياسية المعاصرة نصر محمد عارف ص127 الدار العالمية والمعهد العالمي 1981م.

21) فصل الإسلام عن سياقه الديني والحضاري للشرق القديم: عبد الحليم نور الدائم الكرنكي صحيفة القدس، ص14، عدد25، نوفمبر 1995م.

22) صورة المستقبل فردبولاك نقلا عن إسلامية المعرفة ص49، العدد السابع عشر، صيف 1999م.

23) الحوار مع الآخر في الإسلام أحمد صدقي الدجاني، الحوار مع الآخر في الإسلام مؤتمر الإسلام وقضايا العصر، عمان، 16-17/12/2002م.

24) صورة المستقبل العربي سعد الدين إبراهيم وآخرون مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص119، 1982م.

25) نحو فقه سديد لواقع أمتنا المعاصر: د خالد سليمان الفهداوي، ج1، ص262، مركزعبد المحسن بن جلوي للأبحاث والدراسات، أكتوبر 2002م.